واذا كنا نذكر هذه التجارب ، فلا نذكرها تأسيا على النفس وابناء الجلدة . ففي كل انحاء العالم ، رأى الاطفال ولا زالوا يرون مناظر مفزعة ، بعضهم يشفى من اثرها والبعض لا يشفى . وقد عاش بعض الاطفال اليهود الذين ظلوا على قيد الحياة بعد المعسكرات النازية ليوقعوا الفظائع ذاتها بشعب اضعف منهم ، أما البعض الاخر فقد تخطى الفزع وتفوق عليه . ولكنهم جميعا حملوا آثار تلك التجربة المريعة طيلة حياتهم .

وفي أيار ١٩٤٨ ، وبعد ٤٨ ساعة من المعاناة في وسط المعركة ، أغلق آل سرحان باب بيتهم الامامي بحرص ، وزحفوا بثياب النوم ليجدوا لانفسهم ملجأ مؤقتا يقضون فيه الليل . واخذوا معهم مفتاح الباب ، ولكنهم لم يعودوا اليه قط ، فقد وضعته خطوط الهدنة في بلد آخر . ولا هم استعادوا أبدا الاحترام الذي كانوا يتمتعون به عندما كانت العائلة وحدة مفيدة في نسيج اجتماعي. وبعد ثماني سنوات من معاناة شظف العيش كلاجئين والبحث عن عمل في ظل الفوضى التي كانت تعم بلدهم المفتت ، هاجر آل سرحان الى الولايات المتحدة . ولم يكن سرحان يرغب في الهجرة . « اردت أن أبقى في وطني بين شعبي . وكنت أعرف أن الولايات المتحدة ضد العرب وصديقة لاسرائيل » . لقد أبدى سرحان وهو لا يزال في الثانية عشرة شرفا وحكمة أكثر بكثير من فلسطينيين يكبرونه .

لم تعرف العائلة الرغد في الولايات المتحدة ، جزئيا لان قيمها العتيقة لم يكن لها محل في تلك البلاد على الاطلاق ، وجزئيا بسبب مشاكل داخلية . كان سرحان جديا وقارئا مثابرا وشابا مطيعا هادئا عميق التدين صموت مترفع . لم تكن كاليفورنيا المكان المناسب له . وعلى الرغم من ان آل سرحان استقروا في الولايات المتحدة ، الا انهم جميعا ( عدا استثناء واحد ) رفضوا أن يصبحوا مواطنين اميركيين وأصروا على البقاء فلسطينيين ، فلم يكن هذا ليقدم لهم مساعدة عملية . كما أنهم كانوا سمر البشرة وبذلك تعرضوا للتمييز اللوني الغربي . لقد كانوا حساسين وذوي كبرياء ولم يكونوا يشعرون بالانتماء الى أي مكان. لذا تفتت العائلة،

فعاد بشارة سرحان الى الضفة الغربية وسلك الاخوة الكبار سبلا غير مأمونة العواقب للحصول على المال وبدأوا يواجهون مشاكل . ووجد سرحان وظائف مهينة وأصبح بالتدريج يشعر بغربة اكبر عن المجتمع الاميركي . ولربما كان من الافضل له لو غادر .

يقدم لنا كتاب جودفري جانسن ، الذي وضع له مؤلفه عنوانا فرعيا هو « قصة ضحيتين » دراسة جيدة في الدوافع السياسية والانسانية التي تضافرت لتحدد سلوك سرحان . ولا شك في أن الجزء الطويل الذي كرسه المؤلف لسرحان يتخطى التحليل السياسي ، فهو أقرب في نفاذ البصيرة إلتي يتغلغل بها الى جذور الكائن الانساني المتشابكة غير المرئية الى رؤيا الفنان منه الى التحقيق الصحافي . ويتخذ السيد جانسن موقفا دفاعيا نوعا ما لكونه « آسيويا جنوبيا يكتب عن آسيوي غربي » ، ولكن ليست هناك حاجة فعلا للصفحات التي افتتح بها الكتاب. فليست السنوات التي قضاها المؤلف في العالم العربي هي وحدها التي ساعدته على اكتشاف تعقد شخصية سرحان . غير أن الجزء الخاص بروبرت كينيدي ليس الا تحقيقا سياسيا تبرز من بين سطوره كراهية المؤلف ، التي يمكن فهمها ، للموضوع . الاسوأ من ذلك أن ثلاث صفحات فقط مخصصة للمحاكمة ، رغم أن هذا الجزء رئيسي بالتأكيد . بدلا من ذلك ، نواجه فجأة برواية ليلى خالد لأول عملية خطف طائرات قامت بها ، وهي قطعة من الكتابة الممتازة ولكنها غريبة تماما في مفهومها ومزاجها عن مأساة سرحان . وهي تعاكس جوهر كل ما تبقى من الكتاب ، ويجب أن تحذف من الطبعات اللاحقة . واذا أخذنا بالاعتبار الثمن المرتفع الذي وضعه الناشر للكتاب ، فاننا نستطيع القول انه كان يستطيع أن يدفع بعض المال لمصحح يجنب الكتاب مئات الاخطاء الطباعية . كذلك لم يؤد محرر الكتاب خدمة جيدة للمؤلف . ولكن نوعية الكتاب ، لحسن الحظ ، عالية بحيث تتغلب على سوء انتاجه .

**ثريا انطونيوس**